نُدوبٌ
في وَجْهِ السَّلَفيّة !

أحمد الزهراني

السُّرورية

منذ أن تعاقد وتعاهد الإمامان محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب على إقامة الملة العوجاء وردّ الناس إلى دينهم بسلطان العلم وسلطان السيف، منذ ذلك الحين عادت السلفيّة لتكون مهيمنة على الحياة العلميّة والدينية، لم يكن ذلك سهلاً أمام مقاومة كبيرة من جمهور اعتاد على تحكيم الرجال والتعصّب المذهبي، عداك عن مظاهر البدع والشرك كبيره وصغيره، لكن الله تعالى أيّد أولياءه وأعان من نصر دينه فأعزّهم وجعل كلمةَ مخالفيهم السفلى وكلمةُ الله هي العليا.

ثم تكالب على دولة التوحيد من تكالَب، وغزَتْها رايات الشرك والبدعة فسقط في سبيل ذلك من سقط من الأئمة، أئمة العلم وأئمة الدولة، حتى قيّض الله الملك عبدالعزيز رحمه الله ليقيمها مرّة ثالثة دائمة بإذن الله.

توحدت المملكة على يد الملك عبدالعزيز، وانطلقت مرحلة جديدة من الدعوة السلفية، التي فرضت نفسها بما انتشر من رسائل وكتب أئمّة الدّعوة ومن أجابهم من علماء العالم الإسلامي، الذين اقتنعوا بمضمون هذه الدعوة، وأنها تمثّل حقيقة الدين الذي أرسل به النّبيّ ﷺ.

حمل مشعل الدعوة منذ التأسيس الأئمة والعلماء، ومنهجُهم في ذلك منهج أئمّة السلف الصالح القائم على ركيزتين: **أولاهما** : تعليم الناس دينهم، ونشر السنّة، وكشف الشُّبَه التي تحول بين الناس وبين الحق، والردّ على مخالفي دعوة السّلف الصالح، وبيان ضلالهم ومخالفتهم للكتاب والسنة من جهة، ولأئمّتهم الذين ينتحلونهم من السّلف، من جهة أخرى.

وأما الركيزة الثانية : فهي الجماعة، والمحافظة على اجتماع الكلمة بين المسلمين، أئمّتهم وعامّتهم، حكّامهم ومحكوميهم، وهذا تجده سِمَةً مستمرّة منذ عهد الصحابة، فكل أئمّة العلم والسنة تجد عندهم هاتين الركيزتين، مهما تبدّل حال المسلمين سياسياً أو اجتماعياً أو علمياً، بل حتى عندما كانوا يقعون في أيدي أهل البدع المتسلطة عليهم ظلماً وعدواناً فقط لأنهم دعاة للسّنّة، لا تجد عندهم خروجاً عن هذا المنهج، التعليم والجماعة.

كما فعل الإمام أحمد في محنة القول بخلق القرآن، وكذلك أئمّة السنة والحديث الذين كتبوا مؤلفاتهم في فترات كانت الأمّة تمر باحتراب واقتتال وفتن، ومع هذا لم يشتغلوا إلا بالعلم من جهة، وترك الفتن والفُرقة، وعدم التحريض في الفتن والاصطفاف.

ويُذكر أنّه في عهد الملك عبدالعزيز جاء حسن البنا- مؤسس جماعة الإخوان- يطلب الإذن بافتتاح مكتب رسمي لجماعته في المملكة، لكن طلبه قوبل بالرفض، وتلك منّة للملك عبدالعزيز في رقبة كل من عاش في هذه البلاد، أن دفع عنا بلاء الإخوان منذ توحيدها.

لكن هل سكتت هذه الجماعة ؟

لا، بل تواجدت وبقوّة وكثافة، مستغلّة الأحداث التي حصلت في عهد الرئيس المصري جمال عبدالناصر، إذ فرَّ كثير منهم إلى دول الخليج وفي مقدّمتها المملكة، التي استوعبتهم، وفتحت لهم أبوابها استجابةً من الملك فيصل رحمه الله لما تمليه عليه واجبات الأخوة الإسلامية، وإيواء الطريد والشريد.

كان المفترض أن يكون لأولئك الفارّين إلى بلادنا من الأخلاق والمروءة ما يوجب عليهم أن يقدّروا هذه الضيافة، وأن يقابلوها باحترام المنهج والديانة السلفية التي تربي المملكة أفرادَها عليها، فإن لم يهتدوا إليها ولم يقتنعوا بها فلا أقلّ من الحياد وعدم التدخّل.

ولكن الذي حصل أنّ هؤلاء استغلوا تمكين المملكة لهم، في مناصب التعليم بالذّات ووظائفه للقيام بتأسيس حاضنة لفكر الإخوان ومنهجهم، خاصّة في الجامعات والمعاهد الشرعيّة.

ولأنّ البيئة السلفية العلمية والقوية التي يمسك بزمامها العلماء الكبار كانت عصية نوعا مّا خاصة على من سبق له التشرب بها، فقد نشأ تيار إخوانيٌّ صِرف، على يد معلمي المدارس والجامعات ومعلمي حلقات تحفيظ القرآن، وتربى على أيديهم جيل ينزع إلى "الإسلاموية" كما يعبر عنها الآن، وهي حالة إعجاب جُمْلي بالإسلام، وانتماءٌ عام للأمة، لكن دون تركيز على التفاصيل، وبدون اكتراث بالتطبيق.

يوازي هذا النشأ نشأٌ آخر تربى في محاضن العلماء، نشأةً سلفية تقليدية كما يقال، وكان بهم قلّة، لكن الفتوى والرئاسة الدينية إفتاءً وقضاء كانت بيده، مما ضيّق على الإخوان فضاء الحركة والانتشار.

زاد من ذلك حادثة جهيمان وعدوانه على الحرم المكي وما حصل من زيادة التضييق على المناشط الدعوية المشبوهة والرقابة على تحركات الجماعة.

فحوصرت الجماعة من قبل عامِلَين : العامل الأمني الذي يدقّق في مناشطهم ويمنع كثيراً منها رغم ضعفه في تلك الأيام وبدائيته التي سمحت للجماعة المتلونة أن تختفي كثيرا وتعمل في ظلّه.

والعامل الآخر هو التباين بين البيئة السلفية في المملكة التي تتشدد في كثير من المسائل الفقهية وبين طريقة الإخوان التي تفرّط حتى في الفرائض والأصول الشّرعيّة.

ولم يكن في مقدور الإخوان الجماعة الأم أن تتخلى عن المملكة لأنّها قلب العالم الإسلامي، والرأي الشرعي الذي لا يصدر عنها مهما يكن سيفقد بريقه وقوّته التي تحتاجها الجماعة لشرعنة مشاريعها الفكرية والسياسية.

كان لابد إذن من وسط تذوب فيه الفوارق بين هذين المكوّنين من جهة، ويحقق نوعاً من الحصانة عن طريق الاقتراب من العلماء الرسميين الذين تثق بهم الدولة وتقدرهم وتحسب لرأيهم وكلامهم حسابا من التقدير والاحترام.

وهذا ما كان فعلاً، ولن أعرّج على سبب هذا التشكل، وهل كان أمراً مدبراً مدروساً، أو هو استغلال لحالة التأثر بين الإخوان الذين عاشوا في المملكة فأثر فيهم الجو السلفي الذي عاشوا فيه

وبين جيل تربى على أيديهم فتأثر بهم في المنهج والطريقة، المهم في المآل أنّه نشأ اتجاه جديد جمع في أفراده ودعوته وطروحاته إيجابيات كان الجيل الناشئ في حضن الصحوة متعطشا لها، كان في السابق يفقتد اجتماعها في اتجاه واحد أو جماعة واحدة أو رجل واحد.

الطرح السياسي والتحليل الفكري والخبرة بالمذاهب الفكرية ونقدها ونقد الواقع وتحليله وتفسير أحداثه، كلّ هذا كان احتياجاً نبَتَ -أو تمّ استنباته- في ذلك الجيل، خاصة بعد أحداث غزو العراق وصدْمة الناس بما حدث، مع شحّ مصادر المعلومات إلاّ من إذاعات تبث الأخبار والتحليل السياسي الصرف، وكان الفرد المتديّن يبحث عن التفسير الشرعي والتكييف الفقهي لمجريات الأحداث، وهو مالم يكن يجده عند العلماء والدعاة السلفيين، وإنما يجده عند الإخوان الذين لا يميل إلى طريقتهم في العقيدة والولاء لها، وموقفهم من المبتدع، إضافة إلى ما قلناه سابقاً من ضعف التمسك بالدين أصلاً، باطناً وظاهراً.

ولهذا كان تصدّر افراد من طلبة العلم والمشايخ لتعليم العلم الشرعي والدعوة إلى تعليم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضيفين إلى ذلك علمهم بالواقع – زعموا- وتحليله وتفسيره، وتنزيل النصوص عليه مع معرفة واسعة بالمذاهب الفكرية، خاصّة التي تتصادم صراحة من حاكمية الشريعة، كان هذا عامل إبهار وإعجاب شديدين عند غالب الشباب والكبار ممن كان متحمساً للدين ومتبنياً لفكرة حاكمية الشريعة، التي سبق أن وطّأ لها القوم في نفوس الناشئة.

سحَب هذا الاتجاه البساط من تحت أقدام جهتين، **الأولى** : كبار العلماء والدعاة الرسميين، **والأخرى**: الإخوان، الجماعة الأم، التي كانت ترى هذا الكائن الجديد يتشكّل ويضرب حضورَها وتأثيرها في الخاصرة.

تمَّ هذا بطريقة ناعمة، عكس ما يظهر، وبطريق ما مَرّ عليَّ أكثر خبثاً ودهاءً منها.

أمّا كبار العلماء فاقتربوا منهم جداً، وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، وأظهروا تبجيلهم وتقديرهم، وبالفعل أدّى ذلك إلى إقبال الشباب على دروس العلماء الكبار، وتزاحم الناس على محاضراتهم، وفرح أكثر العلماء الكبار بذلك ظناً أنّ هذا بركة الدعوة إلى الله على يد هؤلاء المشايخ، من طلابهم السلفيين، والواقع غير ذلك.

لم يكن غالب هؤلاء العلماء يدركون أن هذه الجماعة الناشئة وظفتهم في وظيفتين:

الأولى: وظيفة المحامي عنهم، إذ حصلوا بسبب ذلك على الدّعم والحماية والتزكية من قبل هؤلاء العلماء، فقدّموهم للناس، بل يكفي وجودهم معهم ليكون ذلك تزكية فريدة، وكانوا في البدء يشيدون بالعلماء ووجوب احترامهم وأخذ العلم والفتوى عنهم دون غيرهم.

كما شكّل ذلك درعاً تدرّعوا به من القبضة الأمنية التي كانت في تلك الأيام ليّنة، لا لضعف فيها، وإنما لأنّ هذا الكائن الجديد كان على درجة من الخبث وإظهار حسن النيّة وإعطاء الأمان من المكر، مع ما اكتسبوه من تزكية العلماء الكبار الذين كانت الدولة تقدّرهم كثيراً.

أمّا الوظيفة الثانية : فهي إرسال مجموعات من الموالين لهم إلى محاضن العلماء الكبار ليكونوا أولاً علماء في المسائل العقيدة والفقهية وغيرها، وهذا يعينهم على تنشئة أتباع مكتسبين للعلم الشرعي، ومن جهة أخرى يكونون قريبين من لعلماء يوصلون لهم ما يريدون من الأنباء والأخبار ويحجبون أو يؤوّلون ما لا يعجبهم، حتى استطاعوا أن يجعلوا بعضهَم بوقاً لهم يصدح بما يريدون من الفتوى أو تزكية أفرادهم ومهاجمة خصومهم.

هذا بالنسبة للعلماء، وأمّا الجماعة الأمّ فإنهم وقفوا منهم موقف عداء وخصومة في الباطن، وإن أظهروا المسالمة الظّاهرة، وكان الخلاف يصل بينهم أحياناً إلى التراشق بالتّهم، وحصل ذلك في مجلس الشيخ ابن باز رحمه الله مرات، لكنّ الجماعة في النهاية سكتت عن ذلك عندما علمت بعد سنوات أنّ هذا الكائن لا يعدو أن يكون برعماً ناتئا منها، وأنه -على عكس ما ظنّت- لن يكون خصماً بل سيكون أداة لها في تنفيذ أجنداتها في دول المسلمين.

هذه هي "**السرورية**" التي نشأت في المملكة تحت رعاية ومدّ وتربية عرابها الأوّل محمد سرور بن نايف زين العابدين.

لم تصطدم هذه الجماعة بالعلماء ولا أفراد من علماء السلفيين ودعاتها، بل نشطت في كسب المتعاطفين معها والأتباع لها، مستغلّة بذلك مجموعة من الأدوات، أعني توظيف المواهب والقدرات في شتى المجالات وصهرها في سياق واحد، الأديب، والخطيب، والمنشد، والحركي، والتاجر،

والعسكري، والقاضي، وذو المنصب السياسي، وقبل ذلك كما قلنا: العالم والداعية، كل هؤلاء عمل كلٌّ منهم بما وهبه الله من ملكات خادماً للهدف الذي تخطّط له هذه الجماعة، كثير منهم لم يكن يعلم أو يشعر أنه عضو في فريق، وإنما يُطلب منه فقط أن يسهم في الدعوة إلى الله، ونصرة الدين، وهكذا ملؤوا الساحة محاضرات، وكلمات، ودروس علمية، وفكرية، وكان يستمدون من حبل الدولة ما يمكنهم، ومن حَبْل العلماء ما يمكنهم، حتى تضخّم هذا الاتّجاه وشعر بالقوة والقدرة على توجيه الجمهور وتنفيذ ما يريده بهم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، ما إن مرت بالأمّة فتنة العراق مع الكويت وأحسوا – أو هكذا ظنوا– أنّ الدولة ضعيفة ومشغولة والقبضة الأمنية منشغلة بالبعثيين والمخرّبين الآخرين إلاّ رفعوا أصواتهم، وفي أجواء تلك المحنة كشّرت الجماعة لأوّل مرة عن أنيابها.

وبدأت أولى خطواتها في الاستقطاب، فعملت على أمرين مهمين : **الأول**: عزل العلماء عن الشباب عن طريق اتّهامهم بالجهل بالواقع، وأنهم مستغفلون من الحكّام، وأن غاية ما يحسنه ابن باز ومن معه فتاوى الحيض والنفاس !

والآخر : اتهام الدولة وولاة الأمور بالعمالة لأمريكا والغرب وأنّهم أعداءٌ للدين والشريعة، وإن أظهروا خلاف ذلك.

فاهتزت عند كثير من الناشئة الثقة بولاة أمورهم، وبعلمائهم الكبار، وطاروا كلّ مطار، يتتبعون الأصوات العالية من الإخوان والسرورية، يبتغون عندهم ما يروي غليلهم ويطفئ نارهم من العلماء الخونة – في تصوّرهم– والحكام الظلمة الطغاة الذين باعوا البلاد للغرب– كما صوّروهم لهم–.

مستغلّين في إضلال جمهورهم جهْلَه بالعلم الشرعي، وتحكّم العاطفة فيهم، ورأينا كيف انتشروا في كل مكان يُرجفون ويشيعون الأكاذيب، ويقومون بعملية العَزل هذه، وبصفاقة ووقاحة لا مثيل لها.

حتى سُبّ العلماء واتُّهِموا في دينهم من قِبَل أتباعهم، بينما كان رموزهم يكتفون بتهمة الغفلة وحسن النيّة، والجهل بالحال والمآل.

كان ذلك تحت سمع وبصر رجالات الدّولة، الذين أجّلوا المواجهة معهم حتى انقشعت أزمة العراق والكويت، وأعاد الله بقدرته ورحمته الأمور إلى نصابها، ثم بعد ذلك تم التعامل مع رموزهم بالسجن والإيقاف، وبدأ الناس ينسوهم لولا أنّ الدولة ولسبب مّا قامت بالإفراج عنهم بعد عدة سنوات، فهل تابوا وآبوا ؟

الجواب بطبيعة الحال : لا، بل انتقلوا إلى مرحلة أخطر وأشدّ مكراً، فقد تخلّى بعض رموزهم عن فكرة "الإسلام هو الحل"، و"حاكميّة الشريعة" ونُكِسُوا على رؤوسهم، حتى كفّرهم بعض من ربّوهم على التكفير من قبل.

وبدأ هؤلاء المنتكِسون يشكّلون اتجاهاً أقرب إلى نمط الجماعة الأمّ، لكن في اتجاه اجتماعي أكثر منه شرعياً أو سياسياً، وإن كان الهدف المبطّن موجوداً وحاضرا دائماً.

حلَق بعضهم لحاهم، وخفّفها بعضهم تبعا لكبيرهم، في حركة تشبه سير صغار البط خلف أمّهم، فكبيرهم يجيد التلاعب بأتباعه حدّ السخرية، وأصبحوا روّاد القنوات الفضائية التي تقدّموا في سبّها والتحذير من كُفْرها وتغريبها حتى قبل أن تأتينا.

وأصبح كثير منهم لا يأبه لكثير من المنكرات التي كان يقيم الدنيا ولا يقعدها إذا حدثت في مناسبة وطنية أو رسمية.

وأصبحوا لا يتحاشون من إظهار تحالفهم العلَنِيّ مع الإخوان وغيرهم من المبتدعة من رافضة، أو عقلانية، أو علمانية كذلك، بل وحتى أساطين الفجور الأخلاقي من مغنّين أو ممثّلين أو مخرجين أصبحوا لا يتحاشون الظهور معهم والتصوير، بل غدا بعضهم عضواً في إنتاج أفلام ومسلسلات كانت في عرف بعضهم نفاقاً.

ولا يهم الآن كذلك هل كان ذلك تغيراً في القناعات – وهذا ما أرجّحه – أو هو مجرد تغيير في الأسلوب.

كان هذا حاصلاً من بعض كبرائهم في حين ظلّ الآخرون غير راضين عن هذا التوجّه الجديد، لكن كيف يمكن أن يترك الحزبيّ إخلاصه لأخدانه؟

ولهذا كظَموا خِلافهم وإنكارهم عليهم، حتى ذابت الفكرة، وأصبح الجميع – بدرجات متفاوتة – غير آبهين لذلك، فالمهمّ عندهم حماية الهدف الرئيس، "الأمميّة" و"الحاكمية".

وكلّ ما أقوله وقلتُه شواهده موجودة، لكنّ المقال سيطول جداً فيكفي أنّ مَن راقب تلك الفترة أو عاشها يعرف صدق ما أقول.

ثم جاءت فتنة ما سُمّي بالربيع العربي، فما إن عزفت الفِرقة معزوفتها حتى امتلأ المسرح بالراقصين، ونُصبت منابر الفتنة، فاعتلاها هؤلاء ومريدوهم، ولم يبق صاحب دَلْو إلا أفرغ فيها من دلوه.

الخطيب، والمنشد، والعالم، والسياسي، والمفكر، والتاجر، والعسكري، وغيرهم، كشفتهم الفتنة كشفاً مريعاً، ومن شدّة ما أذهبت عليهم عقولهم وبصيرتهم لم يتحاشوا التلفّظ بكلّ مكنونٍ كنّته صدورهم، وأعلنوا الخروج صراحةً في دول، وبشّروا به في دول أخرى.

في ساحاتهم اختلط مالم يكونوا يقبلون مجرد الاقتراب منه، اختلط الصليب بالهلال، والتصق الذَّكر بالأنثى، واختلط العُري بالحجاب، وتصافح العلماني والليبرالي مع مَن رفع طول دهره شعار "لا حكم إلا لله"!

كان المنظر في ساحات الفتنة مقرفاً ومثيراً للاستفراغ، أشبه بمن يجلس على مائدة فيها كل المتناقضات.

خرج شيوخ الفتنة وخطباؤها في ساحات الجمهور يبشّرون ويرقصون، منهم من أخبر بنزول الملائكة، ومنهم من رأى النبيّ ﷺ معهم يحوطهم ويؤيدهم، ومنهم من حلف إنه يرى الخلافة الإسلامية قاب قوسين أو أدنى، كتبوا المقالات والكتب، وسجلوا الكلمات، ونشطوا على وسائل التواصل، وساعدهم في ذلك قنوات إعلامية أداروا بها ومنها حرباً لا هوادة فيها على المجتمعات المسالمة في دول مستقرّة، واستخفّوا مجموعات من الغوغاء في تلك المجتمعات، ليقلبوها رأساً على

عقب، تحت ذريعة الكرامة، والحريّة، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، وغيرها من الشعارات التي سوّقها لهم ورتبها المنظّر الأمريكي الذي أراد لهذا المشروع أن يُنفّذ على يد أخبث وأغبى – مجتمعةً- جماعة عرفها التاريخ الإسلامي كلّه.

وكادوا أن ينجحوا، ووصلت النار إلى بلادنا عندما غزت فتنتهم مصر، ثم لما شاء الله أن يطفئ الفتنة قيض لها من داخلها من يفسد فيها.

ظنت هذه الجماعة الغبية أنها بتحالفها مع الغرب وأمريكا ستخدعهم، وتحصل منهم على الخلافة – زعموا- في مقابل تنازلات، لا يهمّ عندهم، المهم أن يصلوا، في تونس أقرّوا المثلية والشذوذ، وحُكْمَ المدنية والعلمانية، ونودي بالليبرالية على رؤوس الأشهاد، ولا أدري أيّ إسلامية كانوا يحاربون لأجلها إذن ؟

وفي مصر استحوذت الجماعة على الحكم، وخدعت مَن ناصَرها، حتى من العلمانيين الذين تحالفوا معها، بل ذهبت تركض لتداهن الرافضة، وعرض كبيرهم على الفلسطينيين أن يفرّغ غزة من أهلها ويعطيهم من "سينا" منزلاً ليتركوا هُم غزة لليهود.

كان لديهم استعدادٌ ليبيعوا كلّ شيء لأجل المنصب والحكم.

فلا دِين لهم ولا أمانة، ولا أمان، ولا نخوة، ولا مروءة، ولا تقلّ عنهم في هذا داجنتهم "السرورية" التي نشطت في تلك الأيام على يد زعمائها، ينفخون في النار كما نفخت جدّتهم في نار نمرود، يمدّهم بالعون على مخططهم دولة خليجية، وأخرى رافضيّة، إضافة إلى عرّاب المشروع الأمريكي.

وما عرفوا أنهم أقلّ ذكاء وخبرة من تلك الدّول، ومن الغرب الكافر، الذي مسح بهم مؤخّرته ثم ألقى بهم إلى مزابل التاريخ، تلاحقهم لعنات شعوب دُمّرت بلدانها ومُزّقت كل ممزّق.

قيض الله لهذه الفتنة غباء الجماعة كما قلنا، بالاستحواذ الذي قلب عليها ظهر المجنّ، وتسبب في ظهور الرئيس السيسي في مصر، وما جرى بعد ذلك من أحداث مسجد رابعة التي كانت بحقّ حدثاً فجاً يؤكّد أنّ الإخوان وأشباه الرجال من أتباعهم هم أنذل من عرفنا، إذ ظلّت الدولة شهراً وأكثر

تطلب انصرافهم، وفكّ ذلك التمرد الذي سمّوه اعتصاماً، لكن رؤوس الفتنة أظهروا التحدّي، وسبُّوا الحاكم، وهدّدوه بالإعدام، وغير ذلك مما يندى له الجبين من الحماقة والعبث بالدماء والأموال.

وجيّشوا حولهم غوغاء كُثر، وأشدّ ذلك اجتماع النساء، والرجال، والأطفال، والشباب الصغار، والفتيات كذلك، والسبب ليس فكرة التمرّد بذاتها بقدر ماعرف رموزهم أن انصراف الحشد يعني القبض عليهم ومحاكمتهم، ولم يكن أمامهم إلى التمترس خلف الناس، وإطالة أمد الاعتصام أملاً في أن يحصل لهم مددٌ من عرّابيهم، لكن ذلك لم يحصل، وفضّل هؤلاء التضحية بدماء الناس وجعلوهم فداء لهم، حتى يهربوا، فهرب منهم من هرب، وقبض على كثير منهم، ومات بسببهم خلق من الناس، يسألهم الله عنهم يوم القيامة كما سيسأل قاتلهم كذلك.

عند ذلك أمدّت المملكة مصر بمددها، وقام الملك عبدالله رحمه الله قومة رشيدة، فوقف مع مصر ضدّ قوى الاستكبار الغربيّ التي أرادت لمصر مصيراً كمصير تونس، وليبيا، واليمن، والعراق، ليمكن لهم السيطرة عليها، والتمكن من خيراتها، وذلك موقف تاريخي في سلسلة المواقف التي يعرفها التاريخ المعاصر لملوك المملكة أيّدها الله.

بطبيعة الحال قامت الجماعة عبر أذرعها الإعلامية بمهاجمة المملكة، وسمّت عملها دعماً للثورة المضادّة، وحقّ لهم ذلك، فإنّ مشروعهم التخريبي بالتعاون مع أمريكا والغرب كان قاب قوسين أو أدنى، مكروا مكرا كُبّارا، لكن الله أسرع مكرا.

بطبيعة الحال لم يكن للجماعة الأم كلمة مسموعة لأنّ وجوههم وكلامهم ليس له قبول في الخليج، وإنما انبرت داجنتهم "السرورية"عبر أبواقها مرّة أخرى في ترتيب أوضاعهم وأوراقهم، والعودة من جديد لبثّ سمومها، وتدريب الشباب على فقه الثورة وأدبياتها، وكانت منهم مؤتمرات، وتجمعات، ودورات، وتدريب حثيث، برعاية الدولة الصغيرة – إيّاها- واستخباراتها، ومباركة من الغرب وإيران، ولكن الله بفضله ومنّته سلّط عليهم يداً من الحق حاصدة، اجتثت جذورهم واقتلعت أصولهم، وسلّط عليهم سيف القانون والشرع، ليمنع شرّهم وإفسادهم في الأرض، وتلك

طريقة هم اختاروها وأيّدوها، وتعاملوا بها مع خصومهم إبّان قوّتهم، ومن صنع السمّ لا يلومنّ ساقيه.

هذا مختصر شديد الاختصار لحال هذه الندبة الشوهاء في وجه السلفية، والتي اصطُلح على تسميتها "السرورية"، كانت ثمرة مُرّة لشجرة الحزبية المقيتة، والاستعانة بجماعة مارقة على السنة والدّين والقانون، هدفها العلوّ في الأرض والحكم، والتسلّط خلياً عن أية أغراض مشروعة.

أعضاء وكادر هذه الجماعة ينتسبون إلى الدعوة للعلم الشرعي والولاء للعقيدة، والبراء من أعداء السنة، وهذا ما غرّ الناشئة بهم، وكثير منهم مُتّع بذكاء ولغة راقية وبيان، ولكن كما قال الذهبي يوما في سياق قريب من هذا:«وما تنفعُ الآدابُ والبحثُ والذّكاء، وصاحِبُها هاوٍ بها في جهنّم»[1].

كان هدف هذه الجماعة انتزاع الريادة في الساحة السلفية من العلماء، وبطريقة غاية في الذكاء، يُبقون العلماء فقط واجهةً وعنواناً لهم يصدّرونهم في الفتوى الفقهية ويستغلّون قوتهم لدة الدولة في تصفية خصومهم من العلمانيين والحداثيين، بل وحتى السلفيين، باستصدار الفتاوى والبيانات، أو المحاكمات، أو الخطابات لوليّ الأمر ونحو ذلك.

بينما يقومون هم بتولي التوجيه الحقيقي فكرياً وحركياً للمجموعات التي تتبعهم، وذلك عبر وسائل عديدة، بعضها صريح ومباشر من خلال الدورات والمؤتمرات، وبعضها بالإيحاء والتهيئة النفسية، من خلال وسائل التواصل والمحاضرات وغيرها.

يركزون على سلبيات الدول والحكومات، ويضخّمون الأخطاء، ويفسّرون تصرفات القادة تفسيرات محبطة للشعوب، يغلقون الأمل في نفوس الشباب بالذّات، ويصورون المستقبل مع هذه الدول مستقبلاً مظلماً ونفقاً مجهول النهاية.

وفي نفس الوقت يصدّرون الرموز والنماذج، سواء من سياسيين متحالفين معهم، أو مفكّرين خادمين للفكرة، أو علماء شرعيين منحرفين عن منهج أهل السنة في هذه الأبواب.

---

(١) السير (١٨/ ٤٩٠).

والعجب أنّ السرورية التي تدّعي الغَيرة على العلماء وتدافع عنهم ضد الولاة الظلمة – زعموا- وهم أوّل وأكثر من أقصى العلماء وعزَلهم وعزل عنهم المجتمع بأطيافه، خاصة الشباب !

فمن الذي جيش ضدّهم الجماهير بأسلوب ماكر وخبيث، بذريعة أنّهم علماء تقليديون لا يفقهون الواقع، ولا يصلحون لقيادة الأمّة، وأنهم علماء سلطان وبلاط، وأنهم أهل دنيا لا يطلبون بعلمهم الآخرة، وإنما المناصب والمال والشَّرف، والصالح منهم مغفّل يستغفله الحاكم ويوظفه لتشريع كُفْره وفسوقه.

هذا هو ما كان يردّده الإخوان وداجنتهم عبر وكلائهم من سفهاء الناس، بعضهم من الجهاديين، وبعضهم من قادة الجماعات السياسيين، وتلقّف هذه الدعاية كلّ من أراد إقصاء العلماء، فالاقتصادي المرابي يردّد ما ردّده الحركيّون أنّ العلماء التقليديين لا يعلمون الواقع الاقتصادي، ولا يصلحون للفتوى في الاقتصاد المعاصر، ونحو ذلك يقوله الاجتماعي، والسياسي.. الخ.

هم الّذين تولّوا كِبر هذا السّجن للعلماء، ليس في سجون حسية، وإنما في سجون معنوية، عبر التزهيد بعلومهم وفهومهم ومناهجهم، وأصبحت ترى الآلاف المؤلّفة في درس فكريّ أو محاضرة تربوية لصغار السروريين فضلاً عن كبارهم، بينما لا يحضر دروس العلم عند العلماء الكبار إلا عشرات.

ومواقف هؤلاء ضد العلماء وعزل العلماء ظلت نوعاً من المداراة والمداهنة، لكن لما جاءت فرصة للانقضاض على الحالة السياسية في البلاد الخليجية بالذات وتقويض أركان الحكم فيها لم يصبروا أن يظهروا حقيقة ما انطوت عليه قلوبهم وصدورهم، فأظهروا الشقاق للعلماء، واستخفوا بفتاويهم ومواقفهم التي صدرت عن علم السنة وحكمة الكبار، ونحن نتذكر جميعاً ما فعلوه إبان غزو صدام حسين للكويت وكيف وقف الإخوان مع صدّام لأنّه في تصوّرهم سيقضي على الحكومات الخليجية، وعلى رأسها الحكم في المملكة، لتخْلُو لهم الساحة، ولم يقصّر السروريون في المحاضرات المتتابعة التي تلمز قناة العلماء الكبار مرّة بمداهنة السلطان ومرّة بالجبن، ومرة بعدم الفقه في واقع الحال واستغفال الحكام لهم، وانبرَوا هم ينشرون الفتوى المضادّة بعدم جواز الاستعانة بالكفّار،

وصوّروا الأمر على أنّه احتلال للبلاد، وأن أمريكا لن تخرج من بلادنا بعدها وأنها وضعت يدها على مصادر النفط... الخ.

وكان بعضهم يتحدث مراراً عن القواعد العسكرية وضخامتها، وأنها لم تُبن للجيش السعودي وإنما لجيوش أخرى، يعني أنها قواعد عسكرية للقوات الأمريكية وغيرها، وأمّا العلماء فما أُهين علمُهم ولا اتُّهِمَت أفهامهم ودينهم على يد أحد كما فعلوا أيّامها.

حتّى أن انقشعت الغمّة وخنست أصواتهم وانكشف كذب وزيف ادعاءاتهم، وظنّ الجميع أنهم تحّولوا عن تلك القناعات، لكن ما إن هبت على البلاد العربية رياح الفوضى عبر ما سمي بالربيع العربي إلا وتلك الوجوه نفسها ومعها كثير من الأتباع الذين كبُروا وأصبحوا مشاهير إذا هم خطباء الفتن ومروّجوا الشائعات ومهيّجوا الشعوب للثورات والفوضى وخراب بلدانهم، وأمّا كل من عارضهم من العلماء الكبار فعادُوا لنفس الأسطوانة المشروخة القديمة، أنهم علماء سلطان أو أنّهم لا يفقهون واقع الأمّة، وأنّ الأمة انعتقت من نير السلاطين الظلمة ووو الخ ذلك الهراء الذي أظهرَ فيما بعد بحقّ وحقيقة من هم الحمقى، ومن هم الذين علموا الواقع حقاً، بعد أن خربت بلاد المسلمين وسُلّمت لأعدائهم ثروتها وقيادها.

وهذا الموقف العقدي والمنهجي الذي وقفه السرورية ويقِفُه أتباعهم الآن ليس مجرّد انفعال وقتيّ له مسوّغه الوقتي ودافعه وتفسيره الآني، لا بل هو موقف منهجي وعقَدي صادر عن موقفهم أصلاً من الحكومات والأنظمة، وتكفيرهم لها، ولكل من يعمل فيها أو معها، ومنهم العلماء.

وأرادوا من ذلك كلّه تغيير وجه السلفية وإضفاء الأبعاد السياسية والحركية والحزبية لها، لتكون مجرد استنساخ للجماعة الأم، لكن بمضمون عقدي، ربّما كان ذلك بسوء فهم وحسن ظنّ منهم بأنّ خلل الجماعة الأم في إهمال العقيدة والتوحيد وما شابها من مخالفات -تصل للكفر أحياناً- هو بسبب هذا، وأنّهم بمجرد زرع بذرة منها في بيئة سلفية سينتج لنا ذلك جماعة إخوانية المنهج بمضمون عقدي سلفي، وبهذا يحقّقون مبتغاهم في تكوين جماعة المسلمين الحقيقية، التي يجب مبايعتها والهجرة إليها في وقت لاحق، حين يتحقّق لهم التمكين في بلد من البلاد، لكنّ السنوات مرت كاشفة

لهم في كل مرة أنّ ذلك مستحيل، وأنّ الخلل العقدي في الجماعة الأم ليس ساذجاً ولا عابراً بل هو أصل أصيل في تكوينها وشرطٌ في وجودها.

وهنا كان لزاما على أبناء هذه الفرقة الداجنة أن يختاروا بين العقيدة التي زعموا أنهم أبناءها وأن ولاءهم لها، وبين الجماعة الأم وأصولها، فإذا هم ينساقون كالقطيع في مجاميعها، وينتظمون في برامجها ومشاريعها، متحالفين ومتضامنين ومتمالئين على الفساد العريض، رغم وضوح باطلهم وانكشاف عمالة الجماعة الأم وخيانتها لله، ورسوله، ولأئمّة المسلمين، وعامّتهم.

فرأينا السكوت المطبق من أساطين العقيدة ومن لُقّبوا يوما بشيوخ الإسلام رأيناهم ساكتين عن برامج ومشاريع إخوانهم لأمّهم حتى في تحالفهم مع الرافضة، واستجلابهم إياهم إلى بلاد أهل الإسلام وتمكينهم فيها تحت شعارات الجهاد، وتحرير الأقصى، وإقامة دولة الخلافة.

وبان من أتباع هذه الفرقة الداجنة من الحزبية المقيتة ما يثير الشفقة والحزن عليهم، وعلى ما آلت إليه أحوالهم، وكانوا كما قال الشعبي يوما للحجاج حين استعتبه :"خَبَطتْنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء".

ولا يزال تخرج منهم خارجة جيلاً بعد جيل، لأنّ البذور التي بذرها البنّا ورجالات الجماعة المارقة في الأمّة وتأسست عليها كيانات يربي فيها السالفُ الخالفَ ممتدة الجذور، واقتلاعها ليس سهلاً إلا أن يشاء الله، ولن تزال بلاد المسلمين تصطلي بنارهم وفجورهم في الخصومة وفسوقهم في المنهج، لأنّ الغرب الذي رعى تأسيس هذه الجماعة وأعانها وأحاطها طيلة العقود الماضية يعرف أهميتها، ويعرف كيف يستخدمها متى شاء للطعن في خواصر بلاد المسلمين العرب خاصّة، والسنة على وجه الخصوص، وسيحافظ عليها ويدافع عنها ويستقبل قادتها ومنظّريها مهما كلّفه الأمر، وإن كانت بعض بلادنا بحمدالله تنبّهت أخيراً لعظيم خطرهم، وأنهم ليسوا مجرّد أفراد ضلّوا السبيل، بل هم خونة الأوطان، وعملاء الغرب، الذي يعيش كثير منهم فيه ومنه ينطلقون في تكفير الدول التي تتعامل معه، صورة فجّة ووقحة، تعبر عن حال هذه الجماعة وتناقضاتها التي لا تنتهي، هي وداجنتها التي أرادت استلاب السلفية وسرقتها فلم تعدُ أن كانت ندبة قبيحة في وجه السلفية، والله المستعان.

السلفية الحزبيّة !

نحن الآن أمام نُدبة لا تقلّ عن الأولى سوءاً، وإذا كنا قادرين على ملاحظة الندبة الأولى لوضوحها وشدّة مباينتها لطريقة السلف الأوّل، فإنّنا الآن أمام حالة تستعصي على الفهم من خلال مواقف أصحابها.

يطلق عليها خصومها "الجاميّة" ولكنه إطلاق مغالط يخلط الصواب بالخطأ والحق بالباطل، تماماً كما أطلق خصوم دعوة التوحيد لقب "الوهابية".

فالجامية من حيث الأصل نسبة للعلامة محمد بن أمان الجامي رحمه الله، سُميت به طريق السلفية في نقد مقالات المخالفين للسنّة وعلى رأسهم الإخوان وداجنتهم التي سبق الحديث عنها، وكان الهدف تنفير الناس عن قبول كلامهم في مخالفيهم من جماعات التكفير والتخريب.

وكان الشيخ قبل حدوث الفتنة التي كانت إبان غزو العراق للكويت مُعَظَّماً عند غالب أتباع داجنة الإخوان ورموزهم، وكانت دروسه التي يردّ فيها على خصوم العقيدة السلفية تُتَلقف وتُباع ويُثنى عليها من قبل رموزهم.

ويبدو أنّ هذا كان من قبيل حِراكهم الذي سبق أن ذكرناه لتسويق منهجهم عبر الثناء على العلماء وتوليّهم.

لكن ما إن خالفهم الشيخ ورد عليهم في أحداث غزو العراق افتئاتَهم على العلماء الكبار، ومحادّتهم للدولة، حتى انقلبوا عليه ذماً وسخريةً وهمزاً ولمزاً، واتّهموه بكلّ نقيصة، حتى قال بعضهم إنّه عميل لليهود، وقال آخر:إنّه كان يعين النصارى في الحبشة وكينيا ضدّ المسلمين ويورّد لهم السلاح. سمعت هذا من أحدهم بنفسي.

ذكّرني موقفهم هذا بما أقوله دائماً عن الإخوان وداجنتهم أنّ بهم شبه من اليهود في البهتان، ففي الصحيح أنّ عبدالله بن سلام رضي الله عنه لما أسلم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت فقال رسول الله ﷺ:«**أيَّ رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟**»قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأخْيرُنا وابن أخْيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «**أفرأيتم أن أسلم عبد الله؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا: شرّنا وابن شرّنا، ووقعوا فيه.

وهذا ما فعله الإخوان وداجنتهم مع الشيخ رحمه الله لما خالفهم بهتُوه وكلّ من معه.

وأصبح كلُّ من خالفَهم يُرمى بالجامية، وهي ليست سبّة إلاّ من حيث معناها الذي اسقطوه وحدّدوه في نفوس المتلقين، أنّ الجامية قومٌ من الحسدة وعملاء المباحث الذين لا قيمة لهم ولا علم ولا فقه، ولا همّ لهم إلاّ متابعة العلماء والصّالحين والدّعاة والزجّ بهم في السجون، أو إبطال الأعمال الدعويّة، وصدّ الناس عن سبيل الله، وغير ذلك من التهم.

ومن تسمياتهم كذلك ونبزهم "المدخلية""الخلوف" "حملة الأختام" "أهل المدينة".

وهنا لابد أن نذكر شيئا مهماً، وهو أنّ الاتجاه العام الذي وقف في وجه الإخوان وداجنتهم خاصّة في المملكة هو الاتجاه السلفي الذي هو امتداد لنهج أئمة السلف منذ عصر صحابة رسول الله ﷺ وُصولاً إلى أئمّة الدعوة، وانتهاءً بالأئمة الثلاثة ابن باز والألباني وابن عثيمين رحم الله الجميع.

ليس عند الجامية أو أياً ما كان تسميتها عقيدة أو فكر أو رأي فقهيّ مخالف لمادرَج عليه أئمة السلف، في أيّ باب من أبواب المعتقد هُم على جادّة السلف الصالح.

ولا يضرّ صاحب الحق أن يلمزه المخالفون، فقد لمز أهل الشرك والنفاق نبيّ الله ﷺ واتهموه بالجنون، والكذب، والشعر، والخرافة، فلم يضرّه ذلك إذ كان على الحق.

ولا أتباعه كذلك الذين اتّهمهم خصومهم بالحشوية، والجمود، والنابتة، والمشبهة، والإرجاء، والقدَر، وكل فرقة تتهمهم بضد بدعتها، ومع ذلك ظلّ أئمة السلف على طريقهم وطريقتهم في الاهتداء بأصحاب النّبي ﷺ معتقداً وسلوكاً وتفقهاً.

إذن كيف شكّل هذا الاتجاه ندبة في وجه السلفيّة؟

الجواب: أنّ النّدبة ليست الاتّجاه نفسه، بأصوله وأدبياته وقواعده، وإنّما النّدبة فئة من غلاة المتسبين للمنهج السّلفي، إذ غَلَب عليهم الغلوّ في قضية الموقف من المخالف.

وأريد هنا قبل ذلك أن أفصل بين أهل العلم السلفيين مثل كبار العلماء في المملكة وطلابهم الكبار وبين هذه الفئة الغالية.

إذ تضخّمت قضية الموقف من المخالف في تصوّراتهم حتى غدَت شيئاً يشبه طريقة الرافضة في الإمامة أو الولاء لآل البيت، فطغَت على الحوار الفقهي والمنهجي والعقديّ فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين مخالفيهم من جهة.

وتشكّل داخل هذا الاتجاه شيوخٌ لهم مريدون يدافع كلّ جماعة منهم عن آراء شيخهم، ويبدّعون مخالفيه على الفور، لا لتمشعر، ولا إرجاء، ولا خروج، ولا اعتزال، ولا قَدَر، ولا شيء من ذلك، إلا أنّ فلاناً لم يوافق إمامهم العلاّمة في ذَمّه وتبديعه وأمْره بهجر شخصٍ مّا، من العلماء أو الدّعاة، أو في فَهم قضيّة معيّنة تتعلّق بالتعامل مع المخالف.

وتجد في عرف هؤلاء من كان إماماً في قضايا الجرح –قبل شهور– تجده بعد ذلك مجرما يُحذّر منه مَن كان مادحاً له قبل ذلك، لا بل يجعله أخطر من المبتدعة أنفسهم.

وهذا الاتجاه حزبي لا يقل حزبية عن الإخوان وداجنتهم، بل أمره أكثر سوءاً، كونه ينتحل السّلف ومذهب السّلف، وغالب رموزه ومتحدّثيه بعيدون كل البعد عن الفقه والمعرفة بالشريعة وأصولها وأحكامها في هذه الأصول.

فالحكم على المخالف تكفيراً، أو تبديعاً، أو تفسيقاً، أو الأمر بهجر فلان، ومقاطعة فلان، وغير ذلك من الأمور التي كان يتولاّها العلماء بل الأئمة منهم، أقول: إنّ هذه الأحكام كلّها ليست ديانة في ذاتها، بل هي أمور مصلحيّة يعتورها مقاصد الدّين ومصالحه المقصودة شرعا.

وهذا يعني في أقلّ أحوالها أنّها قابلة للاختلاف وتعدّد الاجتهادات، فإذا اتفقت أنا وأنت - مثلاً- على أنّ الأشعرية بدعة، وأنها مذمّة، واتفقنا على التحذير منها ورواية ما ذكرَه السلف عنها من ذمّ أصحابها وردّ شبهاتهم وجنايتهم على الدّين، ثم اختلفنا في الموقف من أشعري معيّن، في حال معينة، هل يذمّ ويُهجر ويقاطع لغلبة المصلحة في ذلك وظهورها على المفسدة، أم أن مفسدة ذلك غالبة فيُدارى ويُتعامل معه وفق الأطر الشرعية ؟ فهذا الاختلاف اختلافٌ مشروع إذا صدَر عن اجتهاد وحسن ظنّ بعضنا ببعض.

لاحِظ أنّ الكلام عن أشعريّ يعلن أشعريّته ويدعو إلى بدعته، فمابالك إذا كان الخلاف في سلفيّ العقيدة والمنهج له اجتهادٌ في موقفه من الإخوان مثلاً من حيث التعامل معهم وفق المصالح والمفاسد في حال معينة أو مكان وزمان محدّدين ؟ فهل هذا يستحقّ وقوع بعضهم في بعض بهذه الفجاجة من الأحكام التي يخيل لمن يسمعها أنّ المطعون عليه كافر زنديق محارب لله ورسوله، وكلّ مافي الأمر أنه لم يتفق مع الإمام العلامة الجهبذ في الموقف من شخص أو اتجاه. حتى لو فُرض خطؤه.

لدي الكثير لقوله في تحليل أسباب تكتل هؤلاء وتجمعهم والخصائص النفسية التي تميزهم لكن المقال لا يتسع الآن لذلك وليس من أهدافه.

ولذلك تجد بينهم تشابهاً في اللغة والخصائص حتى لو اختلَفت بلدانهم، وهذا دليل على أن السمات النرجسية والعجب والكبر من مسببات هذه الآفة، ويعينهم على ذلك كون مسائل التجريح مسائل سهلة المأخذ، إذ تعتمد على فريقين : فريق يتصدر لتخطئة مخالف مّا في قضية معينة وهذه يتكفل بها رموزهم، ثم يتلقّفها طبقة بعدهم فلا يدعون وادياً ولا سهلاً ولا جبلاً إلاّ اشعلوا فيه بتلك الأقوال فتناً لا تهدأ، فيشغلون الناس عن مقاصد الدين الكبرى، ويبثون الشقاق بينهم فيما مفسدته أعظم من السكوت عن المخطئ، لو فُرض الاتفاق على أنه أخطأ.

وهؤلاء الأتباع الرّعاع كثير منهم لا فقه لهم ولا علم ولا ديانة إلاّ في الحميّة الجاهلية لعقائد يظنونها جُنّة لهم من حساب الله تعالى لهم على أعراض المسلمين، وعلى تسلّطهم بالباطل على الناس، وعلى الدعوة أحيانا في مناطق أو مؤسسات سلّطهم الله فيها لينظر كيف يعملون !

ومعيشة بعضهم ليله ونهاره على بذر الشّرّ وزرع العداوات على كلماتٍ تصدر من بعض شيوخهم قد تكون حقاً وقد تكون باطلاً، ومن أسوء ذلك أنّ كثيراً منهم لا يميّز ما يقوله الشّيخ في حال الرّضا والتعقّل وبين ما يقوله في حال الغضب والتسرّع، فإنّ بعض كلمات المشايخ تخرج في ساعة غضبٍ لو تروّى فيها ما نطق بها، ولو روجع لرجع عنها، فيتلقّفها الناشئة فرحين بها(٢) ينشرون سَوءة شيخهم على الملأ، ولو كان لهم من الفقه اليسير لعرفوا أنّ هذا الكلام الغالي في القدح والثلب ممّا يجب أن يُستَر ولا ينشر، وأن لا يكون ذلك محور ولاءٍ وبراءٍ وخُلفٍ واختلافٍ مع إخوة الدّين والعقيدة، ولله ما أجمل قول الإمام الشّعبي حين قال: «**حدّثْناهُم بِغَضَب أصحاب محمّد فاتّخذوه ديناً**» (٣).

وخرّج أبوداودُ عن عمرَ بن أبي مرّةَ قالَ: «كانَ حذيفةُ في المدائنِ، فكانَ يذكرُ أشياءَ قالَها رسولُ الله ﷺ لأُناسٍ من أصحابه في الغَضبِ، فينطلِقُ ناسٌ ممّن سمعَ ذلكَ مِن حذيفةَ فيأتونَ سلمانَ فيذكرونَ لَه قولَ حذيفةَ فيقولُ سلمانُ: حذيفةُ أعلمُ بما يقولُ، فيرجِعونَ إلى حذيفةِ فيقولونَ: ذكَرنا قولكَ لسلمانَ فما صدّقكَ ولا كذّبكَ، فأتَى حذيفةُ سلمانَ فقالَ: يا سلمانُ ما يمنعُكَ أن تصدّقني بما سمعتَ من رسولِ الله ﷺ ؟ فقالَ: إنّ رسولَ الله ﷺ كان يغضبُ فيقولُ لناسٍ من أصحابِه، ويرضَى فيقولُ في الرّضى، أما تنتَهي حتّى تورِثَ رجالاً حبّ رجالٍ، ورجالاً بغضَ رجالٍ، وحتّى توقِعَ اختلافاً وفُرقةً؟ ولقد علِمتَ أنّ رسولَ الله ﷺ خطبَ فقالَ: «**أيّما رجلٍ سببتُه سبّة، أو لعنتُه**

---

(٢) وهذا من سلبيّات غلبة الناشئة على مجالس العلماء والمشايخ.

(٣) تاريخ دمشق (٣٢/ ٣٩)، أي نقلنا لهم من الأخبار ما فيه كلام بعض الصحابة في بعض كما يغضب الأخ على أخيه والوالد على ابنه، فهي كلمات لم يقلها الصحابي ديناً فاتخذها بعض أتباعهم كذلك.

لعنة في غضَبِي فإنّما أنا مِن ولدِ آدمَ أغضبُ كما يغضبونَ، وإنّما بعثني اللهُ رحمةً للعالمين فاجعلها صلاةً عليهِم يومَ القيامةِ»، فواللهِ لتنتهينّ أو لأ كتبنّ إلى عُمَر»[4].

وهذا يبيّن لك أثر نقل الجرح والمثالب في بعض النّاس لبعض، فإنّه سبب رئيس في زرع البغض في قلوب المسلمين لبعضهم، وقد يكون هذا البعض من العلماء والدعاة والصالحين، وهذا يقوله سلمان في عصر كان لله ولرسوله وللدار الآخرة منزلة عظيمة في قلوب النّاس، فكيف بعصورنا هذه عصور الأنانية وتأليه الذّوات والاستماتة في سبيل الدنيا ورئاستها؟!

وكثيرٌ من هؤلاء يتوهّم في شيخه مثالاً وأنموذجاً لا يتطرّق إليه الخطأ، أو لا يتصوّر منه الظّلم والبغي والاعتداء، وهذا جهل بحال الناس، فإنّ مثل هذا لا يكاد يرى في عصرنا إلاّ قليلاً، كما قال العلاّمة ابن الوزير في مناسبةٍ تشبه هذه: «فإنّ أهل الوَرَع الشّحيح ورياضة النّفوس على دقائق المراقبة أعزّ من العيّوق[5] ملمساً، ومن الكبريت الأحمر وجوداً، فإن وجدتهم لم تجدهم أهل التّدريس والفتوى والشّهادة بين أهل اللّجاج، والحضور عند أهل الخصومات، وإذا تأمّلتَ وجدت السّالم من جميع المعاصي من أهل الفتوى والتّدريس عديم الوجود.

فمَن منهم الّذي لا يُسمع منه غيبة أحدٍ؟ ولا يداهن على مثل ذلك أحداً؟ ويصدع بمُرّ الحقّ في كلّ موقفٍ، ولا تأخذه في الله لومة لائمٍ؟ ولا يتخلّف عن إنكار منكرٍ يجب إنكاره؟ ولا يتثاقل عن أداء واجبٍ عليه لعدوّ؟ ولا يترخّص إن وجب عليه عداوة صديقٍ؟ ولا يلين بالمداهنة لأميرٍ، ولا يتكبّر على فقيرٍ»[6]، ولقد صدَق -رحمه الله-، والغرض من إيراد كلامه أن نتعلّم هذه الحقيقة ونوقن بها في مشايخنا ومعظّمينا من أهل العلم والسنة، الكبار قبل الصّغار - وليس في أهل العلم والسنّة صغير - حتّى لا يعظم علينا أن نخالف أحدهم إذا رأيناه تنكّب طريق الحقّ، ولا نكبر في نفوسنا أن نظنّ فيه اتّباعه هواه أو انتصاره لنفسه أو مذهبه في مسألةٍ ما، فنقع في حمأة التقليد

---

(٤) أخرجه أحمد (ح٢٣١٩٤)، وأبوداود (ح ٤٦٥٩)، وهذا لفظُه.

(٥) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثريّا لا يتقدّمها. قاله في القاموس المحيط (ص/ ١١٧٩).

(٦) الروض الباسم (١ / ٥٤).

والتعصّب، بل نعذره ونقدّره ونردّ عليه خطأه كما عُلّمنا أن نفعل مع مشايخنا وعلمائنا دون أن نهضمه حقّه وقدره، والله يعفو عنّا جميعاً ويكل سيّئاتنا إلى حسناتنا بكرمه وجوده وإحسانه.

ومن جميل ما يؤيّد هذا المعنى ما قال محمّد بن إبراهيم بن دينار: «كان مالك وعبدالعزيز بن أبي سلمة يختلفون إلى ابن هرمز[7]، فكان إذا سأله مالكٌ وعبدالعزيز يجيبهما وإذا سألته أنا ومن معي لم يجبنا فسألته عن ذلك، فقال: أوقع ذلك في قلبك يابن أخي؟ قال: نعم، قال: "إنّي قد كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الّذي خالطني في بدني، ومالكٌ وعبدالعزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا منّي حقّاً قبلاه، وإذا سمعا خطأً تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه".

قال محمّد بن حارث[8]: هذا والله هو الدّين الكامل، والعقل الرّاجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن»[9].

قلت : هذا الاتجاه الذي نشأ داخل السلفية يتغذى على مسائلها، ويتخذ منها سوطاً يجلد به مخالفيه متذرعاً بحماية الدين والذود عن حياضه، ونسي أو جهل أن هذه الحماية إن كانت فريضة شرعية فلها شروطها وضوابطها وأصولها، فمن قام بها على غير هدى من الله ومن سنة نبيه ﷺ وطريقة أهل العلم الكبار فعملُه فسادٌ في الأرض وإن ظنّ أنه من المصلحين.

تماماً كما ظن الخوارج المعاصرون أنّ الجهاد هو مجرد قتال الكفار دون الرجوع إلى ضوابط وشروط وأصول الجهاد في الكتاب والسنة فرجع الأمر إلى الطغيان والتكفير لأهل الإسلام بدلاً عن جهاد الكفار.

---

(٧) فقيه المدينة أبو بكر عبدالله بن يزيد بن هرمز الأصمّ،أحد الأعلام عداده في التابعين، جالسه مالك كثيراً وأخذ عنه، توفي سنة ١٤٨هـ.

(٨) الحافظ الإمام محمد بن حارث بن أسد الخشني أبو عبدالله القيرواني صاحب التواليف، كان من أعيان الشعراء، توفي سنة ٣٦١هـ.

(٩) ترتيب المدارك للقاضي عياض(١ / ١٦٥).

هذا الاتجاه السلفي – زعماً- اتجاه حزبيّ وإن ظهر أنه يحارب الحزبية، ولديهم بيعة صامتة، فإنّ الحزبية التقليدية هي مبايعة رمْز يُطاع ولا يُعصى، ويُوالى على فكرته ومذهبه ويُعادى مخالفوه.

وهؤلاء لا يختلفون في حزبيتهم عن أولئك، في كل أدبيات الحزبية، إلاّ أنها أشبه بالزواج العرفي غير المكتوب، فلديهم ولاءٌ وبراء حول شيخهم ومذاهبه واختياراته في مسائل الخلاف التي كما قلنا لا تعدو أن تكون من قبيل الاجتهاد الشخصي لو فُرض صوابه، فمابالك إذا كانت أغاليط !

ومما يزيد أمرهم سخرية ظن كثير منهم في نفسه من العلم وسلطان العلم ما يؤهله للحكم على الناس تبديعاً وعزلاً وهجراً، مع أنه لا منصب ولا جاه ولا فقه ولا قبول في الأرض، فتبديعه ومناداته "صيحة عَير في فلاة" ومع هذا تجد فيهم من الكِبر وإرادة العلوّ في الأرض ما لا يقلّون فيه عن مخالفيهم من الإخوان وداجنتهم التي تحدثنا عنها في الندبة الأولى.

وقد حضرت في بعض مجالسهم في أزمنة مضت فما وجدتها إلاّ مجالس تظلم القلب وتوحش النفس وتوغر الصدر خاصّة إذا رأيت رعاع الناس يتصدرون.

وبعض رموزهم أهل علم ودراية لكنهم ضيعوا أنفسهم في الصراعات النفسية، حتى إني رأيت خمسة منهم كانت كلمتهم واحدة في مخالفيهم فما استدار الزمان إلا كل واحد منهم يطعن في الآخر بل يعدّه أخطر على الأمة ودينها من المبتدعة الحقيقيين !

وبلغ بهم الأمر أن فضّلوا أنفسهم على الأئمة من أمثال ابن باز والألباني وابن عثيمين، إذا أورد عليهم مخالفوهم كلاماً يخالف مذاهبهم وآراءهم، مع أني أقولها ديانة والله لا مناكفة : إنّ السلفيّة الحقيقية هي سلفية هؤلاء الثلاثة **وما سواها "خلٌّ وبَقْل"** !

ولِرُخْص هذه البضاعة – بضاعة القدح والجرح- فقد حُملت إلى أرجاء الأرض وعُرضت في أسواق الناس في بلادٍ قد لا يعرف أهلها الإسلام ولا سمعوا به، فإذا هُم بمن يعرض عليهم أن الداعية الوحيد في البلد الذي يدعوهم للإسلام يحذّرهم منه بأنه مبتدع !

ومنهم من ذهب يزاحم ببضاعته هذه كلّ أحد فلا هو ربح ولا ترك غيره يربح، بل كان غاية جهده أن أَدْخل العامّة وقليلي العلم في الشكّ والرّيب والتردد.

فالذي عليه أئمّة العلم والهدى الراسخين في السلفية حقاً أن الموقف من المبتدع – بعد الاتفاق على أنه مبتدع وأنه مذموم ببدعته – يختلف بحسب الأحوال والأشخاص والأماكن بل والأحوال، تأمّل معي قول شيخ الإسلام : «فكل متكلم في الإسلام فهو من أهل البدع والأهواء أشعريًّا كان أو غير أشعري وذكر ابن خزيمة وغيره أن الإمام أحمد كان يحذر مما ابتدعه عبد الله بن سعيد بن كلاب وعن أصحابه كالحارث وذلك لما علموه في كلامهم من المسائل والدلائل الفاسدة».. فهذا صريح أنهم مبتدعة وأنهم من أهل الكلام المذموم ومن أهل الأهواء في رأي ابن تيمية رحمه الله، لكن انظر ماذا عقب كلامه هذا : «وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة مالا يوجد في كلام عامة الطوائف فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة ونحوهم <u>**بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها المعتزلة والرافضة**</u> ونحوهم».. هل تأملت هذا الكلام جيدا؟ لتفهم به عامّة كلام ابن تيمية وغيره من الأئمة، وأنّ المسألة في ثلب الناس والقدح فيهم ليس ديناً في ذاته، بل هو مُستثنى من أصل حماية أعراض المسلمين لمصلحة راجحة، إذا وُجدت شُرِع الكلام، وإذا فُقدت حرُم أو كُرِه بحسب الحال، والاجتهاد فيه محتمل.

وقال شيخ الإسلام –رحمه الله– كذلك: «سئل أحمد عن الجهميّة أيعاديهم أم يداريهم؟ **فقال:** أهل خراسان لا يقوون بهم» ثمّ قال شيخ الإسلام: «فالهجرة تارةً تكون من نوع التّقوى إذا كانت هجراً للسّيّئات، وتارةً تكون من نوع الجهاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهو عقوبة من اعتدى وكان ظالماً، وعقوبة الظّالم وتعزيره مشروطٌ بالقدرة، فلهذا اختلف حكم الشّرع في نوعي الهجرتين بين القادر والعاجز، وبين قلّة نوع الظّالم المبتدع وكثرته، وقوّته وضعفه، كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظّلم... فالهجران قد يكون مقصوده الجهاد والنّهي عن المنكر وعقوبة الظّالين لينزجروا وليقوى الإيمان عند أهله، **فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحدٍ ولا انتهاء أحدٍ، بل بطلان كثيرٍ من الحسنات المأمور بها ؛ لم تكن هجرةً مأموراً بها**، كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: أنّهم

لم يكونوا يقوون بالجهميّة، فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة، وكان مداراتهم فيه دفع الضّرر عن المؤمن الضّعيف، ولعلّه أن يكون فيه تأليف الفاجر القويّ»[١٠].

وهذا النصّ دليل على أنّه يسوغ لأهل السنة في بلدٍ ما ووقتٍ ما من التحالفات والتعامل مع المخالفين ما لا يسوغ لهم في وقت ومكان آخرين، لأنّ الأمر كما قال شيخ الإسلام يقوم على تحقيق المصالح ودرء المفاسد، فمن الخطأ سوء الظن بأحد من أهل السنة فقط لتصريح صرح به أو موقف وقَفه يفهم منه السكوت عن أهل البدع والأهواء أو التعاون مع بعضهم في أمر مشروع، فلابدّ من تقدير الظرف المكاني والزماني الّذي يمر به من نريد تقويم أقواله وأفعاله، وهذا هو حقيقة الفقه في هذه المسألة، وأنه راجع للتقدير المصلحي وليس حكماً جامداً تعبدياً لا يتغير في كل حال، وهذا مالا يفقهه أتباع هذا الاتجاه الحزبي المتدثّر بعباءة السلفيّة.

ومن صفاتهم كما سبق الاستعلاء على الآخرين يتفننون في إظهار دونية من سواهم حتى لو كان من داخل الاتجاه نفسه إذا كان لا يحذو حذوهم، فإذا تسلّط أحدهم على منصب في مؤسسة أو شركة أو مدرسة أو غير ذلك تجده لا يراعي إلاّ شفاء صدره من مخالفيه، لا مصلحة الدعوة ولا مصلحة الأمّة ولا الدّين ولا حتى المنهج السلفي الذي ينسب نفسه إليه، أمّا شيخ الإسلام ابن تيمية فيذكر ابن كثير «أنّ السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلّموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنّهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثّه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنّما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوْا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكرُ أن يُنالَ أحدٌ منهم بسوء، وقال له: **إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم**، فقال له: إنهم قد آذَوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حِل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه».

فتأمل قوله : « **إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم** » فهو يراعي في الموقف منهم مصلحة الشريعة، فهؤلاء القضاة هم أفضل الموجود على بدعتهم، فبقاؤهم مع أطرهم على الحق ومنعهم من

(١٠) الفتاوى(٢٨/ ٢١٠ -٢١٢) بتصرّف.

نشر بدعتهم خير من عزلهم أو قتلهم ثم يضطر السلطان للاستعانة بغير الأكفاء فقط لأنهم على السنّة فتضيع حقوق العباد.

والكلام ليس على كفؤين أحدهما أكفأ، فهذا لا ريب في وجوب تقديم أهل السنة على من سواهم، إنما الحديث عن تولية غير الكفؤ فقط لأنّه من أهل السنّة، فبهذا عظمت البليّة.

أما هذه الطائفة الحزبية المتسترة بالسلفية فخراب الدعوة في بلاد الله كلها عندهم مقدم على تولية من لا يوافقهم على مقالاتهم وآرائهم مهما بلغت في الفجاجة والحمق أحياناً، هذا يفعلونه مع سلفيين مثلهم فقط لأنّه لا يعرف الشيخ الفلاني من معظميهم أو يعرفه لكن لا يشيد به ولا يعدّه رمزاً من رموز الأمة!

أما إذا جاء الأمر لمن هو خارج سياج السلفية من الجماعات الحزبية بل وأتباع الفِرَق المخالفة للسنة فحدّث ولا حرج، فبعض أتباعهم تقر عينه ببقاء بلدة أو مدينة كاملة في بلاد الكفار على الكفر ولا أن يرى فيها أشعرياً مثلاً أو إخوانياً يدعوهم للتوحيد أو للإسلام بشكل عام. تماماً كما يفضّل الرافضي بقاء الكفار كفاراً على أن يدخلوا الإسلام على السنّة !

وهذا من عوج التفكير وضحالة الفقه وقِصَرِ النظر بل عمشِه وعَمَاه !

هل قرأت كلام ابن تيمية في القضاة الذي نقلته لك آنفا، انظر ما يقول عنهم في رسالته لأهله بعد أن أعزّه الله :« **وقد أذلَّ الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم ما يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله، وامتنعنا من قبول ذلك منهم، حتى يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا والمذكور مفعولًا، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم** » كل هذا القول يقوله فيهم ومع هذا أبى على السلطان أن يقتلهم ويعزلهم لأنّ ذلك يؤدي إلى فراغ، بل يكون ذلك بحسب الإمكان حتى يوجد البديل الأفضل فالأفضل، أمّا أن نأتي بالحمقى فنسلّمهم مصالح المسلمين ونصدّرهم فقط لأنهم من أهل السنة أو من خاصّتهم وخاصّة خاصّتهم فهذا خيانة للأمانة وتضييع للدعوة برمّتها.

هذا الاتجاه لا يعدو أن يكون تطرّفا في جانب التمسك بالسنة لا يقلّ سوءا عن تطرف الإخوان وداجنتهم السرورية في الطرف المقابل من الجفاء والبعد عن السنة.

والأمر كله في نهاية الأمر أهواء ومنافسة ومغالبة وعلوٌّ في الأرض، ولهذا –سبحان الله– لا بركة في أعمالهم ولا في أنشطتهم، يجمع كل واحد منهم حوله ثلّة تشبهه في السمت والفكر وضحالة الفهم، والنفس الغضبية الجهولة والتسرّع في البغي والعدوان ليصبح إمامهم وقدوتهم في نفس المسائل ونفس الكلام يفترقون عليه ويتشرذمون كل عام مرةً أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكّرون!

وقد غادرتهم منذ سنوات طويلة فرقةً واحدة ثم عدت بعد ذلك وهم فرقتين ثمّ فوجئت الآن أنهم لعلهم عشرين فرقة، كدأب أسلافهم من المتعمقين الغلاة وإن كان مضمونهم السلفي العقدي يمنع عنهم وصف الفرقة.

وقد سألت شيخا فاضلاً من أهل الرّياض يوماً عن طائفة منهم وكان ذلك قديماً قبل سنوات طويلة فلفت انتباهي – وإن كان السياق مختلفا– إلى أنّ مشكلة هذا الاتجاه مشكلة **أخلاقية**، ولعله أصدق وأدقّ وصف لهم، وإن كانت أخلاقهم ضربت السلفية في مقتل وشوّهت صفاءها ونقاءها الذي أحرج كل مخالفيها بالسنّة والدليل الشرعي لا بالبغي على الناس والعدوان بغير الحق.

قالَ شيخُ الإسلامِ –رحمه الله–: «ثمّ القائلُ في ذلكَ بعِلمٍ **لابدّ لَه من حُسنِ النيّةِ، فلو تكلّمَ بحقٍّ لِقَصْدِ العلوّ في الأرضِ أو الفسادِ كانَ بمنزلةِ الّذي يقاتِلُ حميّةً** ورياءً، وإن تكلّمَ لأجلِ الله تعالى مخلِصاً لَه الدّين كانَ من المجاهدينَ في سبيلِ الله، من ورثةِ الأنبياءِ خُلفاءِ الرّسلِ»(١١).

وقالَ أيضاً: «وهذا كلّه يجِبُ أن يكونَ على وجهِ النّصحِ، وابتغاءَ وجهِ الله تعَالى، لا لهِوَى الشّخصِ معَ الإنسانِ، مثل أن يكونَ بينَهما عداوةٌ دنيويّةٌ، أو تحاسدٌ، أو تباغضٌ، أو تنازعٌ علَى الرّئاسةِ، فيتكلّمُ بمساويهِ مُظهِراً للنّصحِ **وقصدُه في الباطنِ الغضُّ من الشّخصِ واستيفاؤه منه**، فهذا من عملِ الشّيطانِ، وَ«**إنّما الأعمالُ بالنيّاتِ، وإنّما لكلّ امرىءٍ ما نوَى**»(١٢)، بل يكونُ النّاصحُ قصدُه

---

(١١) الفتاوى (٢٨/ ٢٣٥).

(١٢) أخرجه البخاري في كتاب الوحي (ح١).

أن يصلِحَ اللهُ ذلكَ الشّخصِ، وأن يكفيَ المسلمينَ ضررَه في دينِهم ودنياهُم، ويسلكَ في هذا أيسرَ الطّرقِ الممكنةِ»[١٣].

ومن علامات سوءِ النّيّة: أن يكونَ المتكلّمُ من أهلِ البطالةِ، الّذين لا عملَ لهم في دعوةٍ ولا عبادةٍ ولا عِلم، وإنّما - كما سبقَ - لا يُعرفُ أحدُهم إلاّ بالكلامِ في النّاسِ، حتّى ولَو كانوا أهلَ بِدَع، قالَ شيخُ الإسلامِ - نوّرَ اللهُ ضريحَه - في معرِضِ كلامِه عن بدعِ المولدِ وما شابهَها من بدعِ العباداتِ: «ولا ينبغِي لأحدٍ أن يتركَ خيراً إلاّ إلى مثلِه أو خيرٍ منه، فإنّه كما أنّ الفاعلينَ لهذهِ البدَعِ معيبُون قد أتَوا مكرُوهاً، **فالتّاركونَ للسّننِ مذمومونَ أيضاً**.

وكثيرٌ من المنكِرينَ لبدعِ العباداتِ تجدُهم مقصّرينَ في فِعلِ السّننِ من ذلكَ، أو الأمرِ بهِ، ولعلّ حالُ كثيرٍ منهم يكونُ أسوأَ من حالِ من يأتِي بتلكَ العباداتِ المشتملةِ على نوعٍ من الكراهةِ.. فمن تعبّدَ ببعضِ هذه العباداتِ المشتملةِ على نوعٍ من الكراهةِ كالوصالِ، وتركِ جنسِ الشّهواتَ، أو قصدِ إحياء ليالٍ لا خصوصَ لها كأوّل ليلةٍ من رجبٍ ونحوِ ذلك، (قد) يكونُ حالُه خيراً من حالِ البطّالِ، الّذي ليس فيهِ حرصٌ على عبادةِ اللهِ وطاعتِه، بل كثيرٌ من هؤلاءِ الّذين ينكِرُون هذهِ الأشياءِ **زاهِدونَ في جنسِ عبادةِ اللهِ من العلمِ النّافعِ والعملِ الصّالِح أو في أحدِهما**، لا يحبّونَها ولا يرغبونَ فيها، لكن لا يمكنُهم ذلك في المشروعِ، فيصرِفُون قوّتَهم إلى هذهِ الأشياءِ، فهُم بأحوالهِم منكرونَ للمشروعِ وغيرِ المشروعِ، وبأقوالِهم لا يمكنُهم إلاّ إنكارُ غيرِ المشروعِ»[١٤].

وهذا كله نقد لحال هؤلاء وليس ذماً لنفس شريعة إنكار المنكر على المخطئين والرد على المخالفين بل هذا شيء آخر لا خلاف فيه بين أئمة السلف بحمدالله قدماء ومعاصرين.

وخلاصة الأمر أنّ السلفية الحقة منهج الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ، معالمه معروفة، وأعلامه منشورة، لا يخالف فيها إلاّ مبتدع ضال صاحب هوى.

ودعاة هذه الدعوة هم أئمة العلم الكبار الأعلام من السلف والخلف، وهم القدوة واجبة الاتباع، إذا اجتمعوا على شيء، وإن اختلف الكبار فالمسألة فيها أقوال، فلا تبديع ولا تفسيق، وإنما

---

(١٣) الفتاوى (٢٨ / ٢٢١).

(١٤) مختصر من اقتضاء الصّراط المستقيم (ص٢٩٧ - ٢٩٩).

تخطئة ونصح وردٌّ للخطأ، ومحبة ودعاء بظهر الغيب، فلا هذا شر من اليهود والنصارى، ولا الآخر الذي خالفه أخطر على الإسلام من الملاحدة !!

والحمدلله أنه اتجاه محصور لا وزن له حتى عند السلفيين أنفسهم وإنما كتبت هذا المقال تبرئة للسلفية من أتباعه الذين لا تخطئهم العين وإن كان خيرة العلماء وطلاب العلم ظُلموا بسبب اتفاقهم في ظاهر الأمر، وإصابة هؤلاء في الكلام على أهل بدع وضلاّل بأعيانهم، وهم في ذلك موافقون لأهل العلم لا العكس، وليس ذلك فقهاً منهم ودقّة فَهم وبصر، بل الأمر كما قال ابن خلف" :اختصم رجلان إلى بعض الولاة فلم يحسن أن يقضي بينهما فضربهما وقال: الحمد لله الذي لم يفتني الظالم منهما".

فليس فقها ولا علما ولا بصراً أن يتكلم الرجل بكلام على غير هدى يعني به خلقاً من الناس، فيصيب به أفراداً من المبتدعة بحق، فهذا ليس نظراً وفقهاً صائباً، بل هو على منهج الوالي الذي حكى ابن خلف قصّته.

العالم الحق هو الذي يفصّل القول، ويُحكِم الحكم، حتى لا يصيب حكمُه وقوله من لا يستحقه من الناس فيقع في الظلم، وإذا كان العالم مجتهداً في القول والحكم على الناس فخطؤه في تزكية من لا يستحق خير من خطئه في جرح وظلم من لا يستحق العقوبة، وهو في ذلك بين أجر وأجرين، لا كما يظن هؤلاء أنه بين إثم وإثمَين !

ولعل كثيراً من الناس يستنكر سكوت العلماء وطلاب العلم السلفيين ومشايخهم، عن الإنكار على هؤلاء والرد على تصرفاتهم، ويظن ذلك موافقة لهم، كما يظن كثير من الناس انتماء بعض الفضلاء من علماء وطلبة علم لهذا الاتجاه، فقط لأنّهم متفقون في بعض المواقف من الجماعات الحزبية بالذات وبعض المبتدعة وأهل الأهواء، وكذلك مسائل السمع والطاعة والموقف من ولاة أمور المسلمين ونحو ذلك مما اتفقت عليه كلمة أئمة السلف سلفا وخلفاً.

والحق أن سكوت العلماء وطلبة العلم الكبار على هؤلاء لأسباب في -رأيي وتقديري- منها :أنّ هؤلاء محسوبون على الدعوة السلفية، والكلام فيهم لا يُفهم منه عند عامّة الناس إلا أنّه إبطال لأقوالهم ومذاهبهم ومواقفهم من الجماعات ورموزها، وهذا ما يدندن حوله أهل الأهواء والمارقون

عن السنّة، فأيّ كلام في هذا الاتجاه يتلقّفه المبتدعة من الحزبيين على وجه الخصوص ليكون مادة لهم ودليلاً يلبسون على الناس به أنّ العلماء الكبار لا يوافقون على تبديع الجماعات ومنتسبيها أو تخطئتهم، وهذا فعلوه سابقاً في مناسبات عدّة من أشهرها خطاب الشيخ الإمام حقاً وصدقاً عبدالعزيز بن باز رحمه الله أيام نشوء الفتنة بعد حرب العراق، فأخذوه ووظّفوه لصالح توجهاتهم حتى اضطرّ الشيخ أن يلحقه بخطاب أنكر فيه أنه موجّه ضدّ أحد وكذّب من وظّف خطابه الأوّل لصالح توجهات الحزبيين.

وقد يضطرّ العالم أو الإمام أو السلطان لمصلحة راجحة أن يسكت ولا يعاقب من يمرق على الشريعة والقانون لغلبة المفسدة، وقد قال النّبيّ ﷺ لمن سأله عقوبة المنافقين : «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**» ولو تكلم العلماء في هؤلاء لكان مدعاة لمثل هذه المفسدة.

ومن الأسباب كذلك أن كثيراً من هذه الفئة يزيدها النصح والإنكار شراً، فإذا رد عليهم أحد ولو بعلم وحكمة وأدب تجد لهم عشرات الردود والصّخب والضجيج، وهذا يعني زيادة شرهم واتساع رقعته، وإشغال الناس بهم أكثر، والحكمة في مثل هذا السكوت عنهم وتركهم منشغلين بأنفسهم واحترابهم مع بعضهم البعض.

ولا يخفى على أحد فتوى شيخ الإسلام رحمه الله في التتر الذين يشربون الخمر وأمره أصحابه أن يدعوا الإنكار عليهم لأنّهم إذا صحوا قتلوا المسلمين، فبقاء هؤلاء في سكرهم أقلّ شراً من سراية فسادهم إلى من حولهم من الناس.

ووالله لولا أني أحببت نفي سبّة انتماء هذه الفئة إلى الدعوة السلفية وتشويههم لمقاصدها ومراميها وأثرهم السلبي جداً على إقبال الناس عليها لأبقيتهم في درج الإهمال والإعراض الذي ألقيتهم فيه من سنوات طويلة، ولكنه تنبيه لبعض من سأل وبيان لما في طريقتهم من الحزبية التي يحاربون الناس بسببها دون أن يشعروا، والله أعلم وأحكم.

❁ ❁ ❁